

التداخل

بين النحو وعلم المعانى

أ. د. محمد فتوح*

يشيع الجدل بين الباحثين حول العلاقة بين النحو وعلم المعانى ، فلم تنقطع صوره منذ أوضح عبد القاهر معالم «علم المعانى» الذى كان يسمى عنده «معانى النحو» فمن الباحثين من يرى هذا العلم الأخير علما بلاغيا ، ومنهم من يراه نحوا عاليا أو فلسفة للنحو .

وهدفنا هنا أن نستوضح طبيعة هذه العلاقة رغبة فى تحديد مجالات البحثين النحوى والبلاغى جمعا للمتشابه وإبعادا للمتباين، وتأكيدا على أن مفهوم النحو ينبغى أن يتسع ليشمل قضايا التحليل اللغوى الصوتى والصرفى التركيبى والدلالى ، فالنحو هو نظرية اللغوى حول مادة لغوية معينة تعلل لقدرة المتكلم القومى باللغة التى تتبعها هذه المادة على أن يحدد لكل شكل لغوى قميله أو وصفه الصوتى والصرفى التركيبى والدلالى (١)

* أستاذ علم اللغة المساعد بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

(١) انظر ، Noam Chomsky (1986) Knowledge Of Language : its nature , origin and use .

PRAEGER , New York , P. 3 حيث عرف النحو التوليدى ، الذى لايعنى فيه الوصف

«توليدى» إلا ما تعنيه الكلمة «واضح» explicit ، بأنه «النظرية التى تعنى بأشكال ومعانى =

١- البلاغة وعلم المعانى :

إن الأسئلة التى ينبغى أن نطرحها ومن خلالها يتضح مجال علم المعانى هى كما

يلى:

ما البلاغة؟ وما مكان علم المعانى فيها؟ وما رأى المحدثين فى تعريفها؟

يرى صاحب الطراز أن البلاغة تستتبع مراعاة الجوانب التالية :

١- اختيار الكلم المفردة .

٢- نظم كل كلمة مع ما يشاكلها أو يماثلها .

٣- مطابقة الغرض المقصود من الكلام على اختلاف أنواعه وتباين فنونه ، فلا بد أن يكون موافقا لما أريد به بعد اختصاصه بالتركيب ، وهو غرض عظيم لا بد من رعايته والكلام بعد تركيبه إذا وضعته فى غير موضعه ولم تقصد به ما هو موضوع له انخرم المقصود به وكان خاليا من البلاغة ، والأمر الأول والثانى من هذه الأمور الثلاثة يتعلقان بالفصاحة لأنها من عوارض الألفاظ ومجموع الثلاثة كلها هو المراد بالبلاغة لأنها من عوارض الألفاظ والمعانى جميعا (١) .

ما نلاحظه هنا أن أهم بنود البلاغة مراعاة مقتضى الحال ، أى تطابق الجملة والعبارة فى نظمها مع ما يستتبعه الحال .

ويقول صاحب الطراز أيضا موضعا مكان علم المعانى بين العلوم الأدبية ، علوم اللغة والصرف والإعراب والمعانى والبيان ، «المرتبة الثالثة علم الإعراب وهو أخص مما سبقه لأن ما سبقه من علم اللغة والتصريف يختصان بالأمور المفردة ، وهذا مختص بالكلم المركبة لأن الإعراب لا يستحق إلا بعد العقد والتركيب ... ومحصوله : فائدة التركيب وهو إفادة

= صور التعبير فى لغة ما ، وحيث عرفه بصورة أخرى بأنه «النظرية التى تعنى بحالة عقل من يعرف لغة خاصة ، أى لغة إنسانية .

وغنى عن الذكر أن أشكال صور التعبير تضم أصوات اللغة ومور فيماتها وكلماتها ومركباتها الصغرى والجمل التى تتألف من هذه المركبات .

(١) انظر العلوى ١٢٠/١ - ١٢١ .

الكلام ، المرتبة الثالثة علم المعانى وهو أخص من علم الإعراب من جهة أن علم الإعراب تحصل فائدته بطلق التركيب ، وعلم المعانى له فائدة وراء ما ذكرنا من التركيب ، وهو ما يتعلق بالأمور الخبرية من تعريفها وتنكيرها وتقديرها وتأخيرها وفصلها ووصلها ، وبالأمور الطلبية الإتشائية كالأوامر والنواهي ، فالنظر فيها أخص من النظر فى علم الإعراب» (١).

ونلاحظ فيما تقدم مآدرج عليه متأخر البلاغيين من القول بأن النحو يهتم بطلق التركيب أو بصحته العرفية ، وهى الفكرة التى اعتنقها نقادون معاصرون ، فالنحوى فى نظر بعضهم يهتم بصحة الأسلوب وخطئه من حيث العرف اللغوى ، والبلاغى يهتم بجمال تركيب ما وتفوقه على غيره فى المعنى ، وهو ما سيكون لنا رأى فيه (٢).

إن من أخطر ما قرره البلاغيون انطلاقاً من البلاغة هى مراعاة مقتضى الحال وأن إمكانات النظم فى العبارة عديدة وبالتالي إمكانات المعانى المعبر عنها - أن البلاغة تتضمن مراتب ترتقى بالتعبير حتى نصل إلى مستوى الإعجاز ، وتتدنى إلى أن نصل إلى التركيب الذى إذا أزيل عن نظامه الذى ألف عليه التحق بالكلام الركيك (٣).

هذا هو محك النظرة البلاغية : البحث عن تفاوت معانى النظم المستخلصة من معانى النحو وتعلق بعضها ببعض .

هذه هى نظرة قدامى البلاغيين إلى البلاغة وعلم المعانى ، وهو ما نراه فى أبرز كتبها المفتاح للسكاكى (٤) . وشرح التلخيص (٥) والطراز .

ولقد كان للمحدثين نظرتهم إلى البلاغة ، فلعلومها انتماعات تخالف انتماعاتها عند القدماء ، فالمعانى فلسفة للنحو والبيان دراسة أقرب إلى المعاجم منها إلى القواعد التى

(١) السابق ٣/ ٣٤٧ - ٣٤٩ .

(٢) انظر مصطفى ناصف ص ١٠ ، وص ١٢ - ١٣ .

(٣) انظر العلوى ٣/ ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٤) انظر السكاكى ص ١٦١ .

(٥) انظر التفتازانى وآخرون ٢/ ٩٤ - ٩٥ .

تبحث فى المعانى الوظيفية^(١) وهناك من يرى أن النحو والمعانى يشكلان علما متكاملما يسميه «علم التراكيب» وأن المعانى التى درسها البلاغيون نحو صرف أطلق عليه بعضهم «النحو العالى»^(٢).

وبجانب هاتين النظرتين توجد نظرة تحفظ للبلاغة مكانها فى الدرس الأدبى ، لكنها تتدخل بالتحوير والتغيير فى مضمونها ، فالبلاغة فى نظر أصحاب هذا رأى هى الاقتصاد فى التعبير ، وهى تلازم الصورة الكلامية مع الصورة الذهنية . ويقعد صاحب هذا الاتجاه لمفهومه عن البلاغة بصورة حاسمة ، فهناك مكان للصفة بالنسبة للموصوف ، وللظرف والزمان والمفعول به والجار والمجرور بالنسبة للمفعول ، ويرى أن هذا المكان لامحيد عنه إذا ما أردنا بلاغة القول لأنه منشأ الاقتصاد فى الفهم للملازمة الصورة الكلامية للصورة الذهنية^(٣).

ونظرة أخيره من محدث إلى البلاغة ، توافق الأقدمين فى جانب مما قالوه . فالبلاغة مراعاة مقتضى الحال ، لكنها أى النظرة توسع مقتضى الحال ليشمل قوى النفس الثلاث : قوة الإدراك ، وقوة الإنفعال ، وقوة الإرادة ، وليضم الأسلوب وفنون الكلام إلى مجال البلاغة ، وهذا رأى يضع نظرية خاصة لفهم النص الأدبى تكون فيها لدراسة الجملة ومعانيها أدوار ثانوية ، وهى بعينها الأدوار الرئيسة التى كانت تقوم بها فى دراسات

(١) انظر تمام حسان ص ١٩ .

(٢) انظر كمال بشر ، دراسات فى علم اللغة ص ٣٦ ، وهامش ١ ص ١٤٦ - ١٤٨ . وانظر P. H.

Matthews 1981 Syntax , Cambridge University Press , Cambridge, P. 1

العلاقة بين «النحو» grammar ، ومستوى التحليل اللغوى المسمى «علم التركيب» Syntax

فالثانى فرع من الأول يعالج «الطرق التى تنتظم بها الكلمات .. لإظهار صور الترابط الدلالى داخل

الجملة» «ففى قولنا مثلا ، «أكرمت البنتان أخاها» ترابطات دلالية بين الكلمات «أكرمت» و

«سعاد» و «أخاها» وهى ترابطات أبرزتها صور الإعراب والتطابق ، ففاعل الإكرام ، هو «البنتان»

لا «أخاها» ومفعوله هو «أخاها» لا «البنتان» .

ومعنى هذا أن المصطلح «علم التراكيب» ، وهو مصطلح للدكتور بشر ، يختلف عن المصطلح «علم

التركيب» بالمعنى الذى حدد هنا ، وذلك لأن «علم المعانى» يتضمن الربط بين صور التراكيب

بمعناها المحدد فى إطار التحليل التركيبى وبين السياقات التى تقع فيها .

(٣) انظر جبر ضومط ص ٣٨ - ٤٢ .

المعانيين ، ولقد رفض الأستاذ الشايب صاحب هذا رأى الاكتفاء بفهم البلاغيين لمقتضى الحال ، لأنه سيقصر الدراسة الجمالية على الجملة من حيث إشباعها لقوة الإدراك العقلية^(١) .

ورأى أن هذه الدراسة تخلق فنا جديدا للبلاغة يصبح لها فيه بمفهومها القديم مكان صغير ، لأنه سيتسع ، كما قررنا ، لفنون القول ومادته وموسيقاه وعواطفه وأخيلته .

ومن أبرز عيوب هذا الفن الجديد الالتجاء فيه أيضا إلى التعقيد بنفس الصورة التى كانت عند أصحاب المعانى ، والتى يرى باحث معاصر^(٢) أنها تحكم قوة الخلق عند الإنسان ، لأنها تدرس الطرز التى يعبر بها عن المعانى ، وهى طرز جاهزة . وهذا ، فيما أرى ، ما جناه إحصاء البلاغيين لمقتضيات الأحوال والتعبيرات الموافقة لها ، فالفنان لا يجب أن تكبل عباراته وأساليبه بهذه القيود لأن ذاك يحرمه من توترات العبارة العاطفية وإشاعات موسيقاه ومواقف نصه الثرية ، إلى آخر هذه الأمور التى هى فوق الضبط والتقنين .

بعد هذا الاستعراض لآراء البلاغيين فى مفهوم البلاغة ومكان علم المعانى منها ، ورأى المحدثين فى العلاقة بينه وبين علم النحو ، هل يمكن أن ندلى بدلونا فنحدد مجال البلاغة ، أو نتبين موقف البلاغيين من النصوص الأدبية التى عاجلها؟ أكانوا متسقين فى النظر إليها مع ماقروه من نظريات أم أن النظريات غابت حين النزول إلى ميدان المعالجة العملية؟ أكان ماقروه من موضوعات علم المعانى دراسة جمالية بلاغية أم كان بعضها دراسة لغوية عرفية؟ .

إن ما اهتدى إليه النظر فى ميدان البلاغة ، وعلم المعانى بوجه خاص أن البلاغة فى هذه الناحية قائمة على الاختيار والمفاضلة سواء أكلنت المفاضلة بين الأشياء المختارة مفاضلة بين صيغة وأخرى ، أم بين أداة وأداة ، أم بين تركيب أو نظام يسمح به العرف اللغوى وتركيب آخر . فليس من البلاغة ما ذكره المعانيون من معانى الأمر والاستفهام

(١) انظر أحمد الشايب ص ١٣ - ١٨ .

(٢) انظر مصطفى ناصف ص ٤٦ - ٤٧ .

والخبر لأنها معان دلالية يساعد المقام على تحديدها . وهذا ما سنعرفه بالتفصيل عند النظر إلى جملة من قضايا البحث في علم المعاني لتبين فيها ما للنحو وما للمعاني وما للدراسة الجمالية وما للبلاغة ، وليس من البلاغة كذلك ما يذكره اللغويون من معان لغوية للأدوات أو الجمل حين يشرحون الملائمة بين معناها والموقف ؛ ففي رأى أن الموقف هنا جزء من معنى الأداة أو التركيب ، فإفادة «إنما» القصر^(١) واختصاص ذلك بالمواقف التي لا ينكر فيها المخاطب ما تقرر جزء من معناها اللغوي^(٢) وإفادة التركيب «زيد المنطلق» القصر جزء من معناه اللغوي ، وشرح المقام الذي يذكر فيه شرح لمعناه اللغوي ، فليس الأمر كما قال صاحب مواهب الفتاح «من أن هذا الكلام من حيث كونه يؤتى به لمناسبة مدلوله للحال يكون من علم المعاني ، ومن حيث كون الجزئين فيه عرفا وأخبر جوازا بأحدهما عن الآخر يكون من علم النحو»^(٣) . وإفادة جملة^(٤) «يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر» التأكيد لجملة ﴿ ولتكن منكن أمة يدعون إلى الخير ﴾ لاتحادها معها في المعنى ، دراسة نحوية

(١) انظر التفتازاني وآخرون ٢١٩/٢ - ٢٢١ .

(٢) ما نقصده بالمعنى اللغوي هنا ما يلي :

أ- المعاني المعجمية التي يحددها المعجم للعناصر المعجمية كجزء من المعلومات اللغوية التي تتضمنها مدخل هذه العناصر ، فلكل عنصر معجمي مدخل يتضمن معلومات تتعلق بمعناه المعجمي وبغير ذلك من المعلومات المتعلقة بنطقه «المعلومات الفونولوجية» وسلوكه التركيبي (المعلومات التركيبية) وبما يجوز معه من العناصر اللغوية «المعلومات المقولية والانتقائية» .

ب- معاني العلاقات النحوية التي تتضمنها الجمل والمركبات اللغوية الصغرى كمركب الموصوف والصفة والمضاف والمضاف إليه إلخ ، ومنها المعاني المرتبطة بعلاقات الفاعلية والمفعولية والزمانية والمكانية إلخ .

ج- المعاني المرتبطة بالسياقات التي تظهر فيها الجمل وماتشير إليه من «الافتراضات» Presuppositions أو «التضمنات» implications والتي يمكن تسميتها «المعاني التضمنية» أو

«الافتراضية» . انظر Jerrold J. Katz, Semantic

Theory " in Danny D. Steinberg and Leon A. Jakobovits , Semantics, Cambridge University Press , Cambridge (1971) , pp. 298 - 299 , P. 303 .

وانظر بخصوص مجالات البحث الدلالي :

Jerrold J. Katz , Chomsky on Meaning , Language, Volume 56 , Number 1 (1980) . 1 - 41 .

(٣) التفتازاني وآخرون ١٩٣ ، ٩٥ / ٢ - ٢٠٠ .

(٤) انظر العلوي ١٨٤/٢ - ١٨٩ .

ينبغي أن تقرر عند دراسة وظائف الجملة المثبتة وعند دراسة ألوان التأكيد .

أما الدراسة البلاغية فألوانها كثيرة وكلها قائمة على المفاضلة والاختيار ، فالإطناب دراسة بلاغية لأنه مفاضلة بين تركيب وآخر من أجل إبراز المعنى وإيضاحه ، والتكرير بإعادة جملة بعينها كجملة «فبأى آلاء ربكما تكذبان» دراسة بلاغية لأنه فط مختار من التعبير القرآنى له ماوراء من التأكيد والإلحاح على الآلاء والنعم^(١) وكذلك التكرير بإعادة كلمة تضمنتها سابقتها كالجبال بعد «الأرض» فى قوله تعالى : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال﴾ ، وذلك لأن الأمر هنا أيضا فط من الأسلوب له غرضه فى العبارة^(٢) . وإشارة العلوى إلى الأسرار البلاغية فى قوله تعالى^(٣) ﴿وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين﴾ من نحو اختيار «يا أرض» دون «أرضى» «وابلعى» بدل «ابتلعى» و«بعدا» بدل الفعل ، واختيار التركيب ﴿يا أرض ابلعى وياسماء أقلعى﴾ دون العكس ، إشارات فى محلها لأنها نابعة من المفاضلة وملائمة المختار للموقف والمقام . وحديث العلوى كذلك^(٤) عن الجمال البلاغى فى «عن» و «فى» فى قوله تعالى : ﴿إنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين﴾ حديث صحيح ، لأنه قائم على ملائمة معنى الأداة المختارة للموقف المعين . والمعنى الجمالى الذى نسبه الزمخشري إلى كلمة «الحيوان» فى قوله تعالى : ﴿إن الدار الآخرة لهى الحيوان﴾ معنى بلاغى يدخل ضمن نطاق المعانى لأنه نابع من المفاضلة بين هذه الصيغة وصيغة أخرى لها نفس المعنى اللغوى هى «الحياة» لكن للأولى فضل اقتضاه مقام المبالغة والدعوة إلى الإقبال على الحياة الآخرة : ففى بناء الحيوان زيادة معنى ليس فى بناء «الحياة» وهى مافى بناء «فعلان» من الحركة والاضطراب.... ولذلك اختيرت على «الحياة» فى هذا الموضع المقتضى للمبالغة^(٥) .

(١) انظر السابق ١٧٦ - ١٧٩ .

(٢) انظر السابق .

(٣) انظر العلوى ٢٣٦/٣ - ٢٤٣ .

(٤) انظر العلوى ٥٣/٢ - ٥٤ .

(٥) مصطفى الصاوى الجوينى ص ٢٥٣ .

إن البلاغيين فى ميدان التطبيق لم يكونوا متسقين مع تعريفهم للبلاغة ولا مع تحديدهم للعلاقة بين علم المعانى وعلم النحو ، فكثير مما يذكرون على أنه أسرار جمالية جزء من معنى العبارة الوظيفى^(١) . وفى رأى أن من أبرز أسباب هذا التردى ربطهم البلاغة بالموقف ، دون ملاحظة شرط الاختيار والانتقاء بين أداة وأداة ، وتركيب وآخر وهذا ماسنراه حين الحديث عن مقتضى الحال عند البلاغيين وقيمة الدرس البلاغى المقنن على هذا الأساس .

وقد استقيت الأمثلة المضروبة من كتاب «الطراز» وليس الأمر صدفة لأنه من أكثر كتب البلاغة وضوحا وجنوحا إلى تأكيد القواعد البلاغية بالتطبيق العملى على القرآن الكريم والشعر والخطب وبخاصة خطب الإمام على لكن ماتردى فيه صاحب الطراز هو موقف البلاغيين عموما^(٢) :

١- درس صاحب الطراز^(٣) حروف التنفى ما ولن ولا ولم دراسة يزعم أنها بلاغية ، فتحدث عن دلالتها على الزمن الذى تنفى فيه الحدث ، والواقع أن هذه الدراسة دراسة تركيبية نحوية للزمن السياقى .

٢- درس العلوى أيضا فوائد «إن»^(٤) وذكر من بينها جواز الاختصار بسببها على الاسم فى الجملة الابتدائية «إن محلا وإن مرتحلا» وهذه الدراسة فى الحقيقة نحوية تركيبية تتعلق بنظام الجملة .

٣- حين أراد العلوى^(٥) أن يبرز الجمال اللغوى فى قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا

(١) يقصد بالمعنى الوظيفية هنا المعانى التى تحددها المكونات القواعدية للغة : المكونات الفونولوجية والتركيبية والدلالية . وتتحدد هذه المعانى فى المكون الدلالى عن طريق المعجم والقواعد الدلالية وانظر هامش ٢ ص ٦ ، وأما معانى السياق فتتحدد بربط الصور والتراكيب اللغوية بالسياقات

التي تقع فيها وهذا هو مستوى المعنى الذى يقع خارج مايسمى «نحو الجملة» انظر - Ray Jakend- of, On Katz's Autonomous Semantics. Language, Volume 57 . Number 2. P. 425 .

(٢) انظر السكاكى ص ١٧٩ - ١٨٠ ، ٢١٠ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠ - ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، وانظر التفتازانى

وآخرون ١٦٦/٢ - ١٧٤ ، ١٧٥ - ١٨١ ، ١٨٦ - ١٨٩ ، ٢١٣ - ٢١٩ .

(٣) انظر العلوى ٢٠٦/٢ - ٢٠٨ .

(٤) انظر السابق ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٥) انظر السابق ٤٤ - ٤٥ .

الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقه مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿ - ذكر لنا معانى حرفى العطف «ثم» و «الفاء» فهو يرى أن كلا منهما قد استخدم فى مكانه المناسب . ورأى أن التراخى الذى تعبر عنه «ثم» والمقام الذى استدعاها وأن التعقيب الذى تعبر عنه الفاء والمقام الذى استدعاها أيضا هما المعينان الأدائيان لحرفى العطف ، وأن استبدال غيرهما بهما هدم للصحة العرفية التركيبية الدلالية لا للصحة البلاغية .

ولقد صنع هذا الصنيع حين درس الأسرار البلاغية^(١) فى قوله تعالى : ﴿ومن آياته الجوارى فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظلمن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوتقن بما كسبوا ويعف عن كثير﴾ فللفاء و «أو» و «الواو» أسرار لم يصورها بأكثر من ذكر معانيها التركيبية الدلالية .

والبلاغيون رغم إدراكهم نظريا لضرورة الفصل بين النحو والبلاغة لم يستطيعوا أن يحققوا ذلك عمليا ، وذلك لربطهم بين البلاغة ومقتضى الحال دون ملاحظة عنصر الاختيار ، ولشئ آخر يتعلق بماهية ماتصوروه من فرق بين العلمين فى طريقة معالجة الجملة بكل جوانبها : معناها العام ونظامها وعلاقتها بغيرها ، وهذا مادعا باحثا معاصرا للدعوة للجمع بين العلمين فيما يسمى «علم التراكيب»^(٢) ولى فى الأمر رأى ينبغى قبل أن نقرره أن ندرس مايلى :

أ- مقتضى الحال عند البلاغيين ودوره فى بناء هيكل علم المعانى .

ب- نتائج الفهم الناشئ عن هذه الدراسة وأثره على اللغة الجمالية .

ج- علاقة المقام بالمعنى .

د- النظر فى جملة من القضايا التى درسها المعانيون تفصيلا على ضوء فهمنا

للبلغة ، وللمقام وصلته بكل من النحو والمعانى .

(١) انظر العلوى ١/١٥٨ - ١٦٠ .

(٢) انظر كمال بشر ، دراسات فى علم اللغة ص ٣٦ .

١- مقتضى الحال عند البلاغيين :

قام البلاغيون المتأخرون بحصر المقامات أو الأحوال ، فهناك مثلا مقامات الإنكار والتردد وخلو الذهن^(١) والتعريض والشكر والتعزية والمدح والذم والترغيب والترهيب ، كما ذكروا أن لكل حال ما تقتضيه من أشكال الكلام وأن البلاغة هي مراعاة مقتضى الحال، ولكن النظر فيما طبقوا عليه من أشكال الجملة العربية والعلاقة بين أجزائها تقديما وتأخيرا يوضح لنا أن الصواب قد جانبهم ، فليس كل ما قالوه من قبيل الدرس البلاغى لضباع عنصر الاختيار الذى سبق أن اشترطته للحكم بأن نظاما ما ذو بلاغة ، ولأن ما قرره من وظائف وأحكام إنما هو تقرير لوظائف لغوية وأحكام نحوية ، فالحال فى مرات كثيرة ليست إلا جزءا من معنى التركيب ، يبدو ذلك فى دراسة أضرب الخبر وفى دراسة التقديم والتأخير ، وفى دراسة الفصل والوصل . فليس الإنكار^(٢) مثلا إلا جزءا من معنى التركيب «إن محمدا قائم» ولا يمكن بحال أن نفعل عند الحديث عن الجملة المؤكدة الموقف الذى تقال فيه ، لأنه يزودنا بجزء من معناها الدلالى «انظر هامش ٢ ص ٦» وليس القصر بما وإلا^(٣) إلا وظيفة نحوية لهاتين الأداتين ، ولا يجوز أن نفعل الموقف حين شرح طبيعة القصر بهما ، فهما لا يستخدمان إلا حين الإنكار . والأمر نفسه يمكن أن يقال بالنسبة لإثما^(٤) . وكذلك القصر المستفاد من تقديم المفعول به كما فى قوله تعالى : ﴿إياك نعبد﴾^(٥) فهو ليس إلا معنى نحويا تركيبيا ، ولا ينبغى أن نفعل الحال التى تستدعى هذا النظم ، فهو يزودنا بما تفترضه جمل القصر ، أى بالمعنى الافتراضى «انظر هامش ٢ ص ٦».

ويمكننا الاستمرار فى تأكيد هذا الفهم لمقتضى الحال عند البلاغيين ، وهو الفهم الذى يوضح لنا أن الحال أساس لتحديد جانب من المعنى الدلالى للتركيب ، وأن هناك تلاحا بين التركيب وسياقه . وما عليك إلا أن تطوف طوفة أوسع وأشمل بآبواب «المعانى» :

(١) انظر السكاكى ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٢) انظر السابق ص ١٧١ .

(٣) انظر التفتازانى وآخرون ٢/٢١٣ - ٢١٩ .

(٤) انظر السابق ص ٢١٩ - ٢٢١ .

(٥) انظر السيوطى ، هم الهوام ١/١٦٦ .

الإتيان بالمسند إليه موصولا ، أو اسم إشارة أو معرفا بالإضافة^(١) و الإبدال منه أو التأكيد^(٢) ، وأن تهتم أكثر بالنكات التى يذكرها البلاغيون لأبواب النحو كالتمييز والبدل ، فأنت لن تجد فى هذه الأمور إلا حديثا نحويا صرفا ، وإلا تفسيرا لمعنى العلاقة التركيبية ، أو معنى مبنى الكلمة . يقول السكاكى : «وأما الحالة التى تقتضى كونه «أى المسند إليه» موصولا فهى متى صح إحضاره فى ذهن السامع بوساطة ذكر جملة معلومة الانتساب إلى مشار إليه ، واتصل بإحضاره بهذا الوجه غرض مثل أن لا يكون لك منه أمر معلوم سواء أو لمخاطبك فتقول : الذى كان معك أمس لأعرفه^(٣) ويقول أيضا : «واعلم أن باب التمييز كله سواء كان عن مفرد أو عن جملة باب مزال عن أصله لتوخى الإجمال والتفصيل . ألا تراك تجد الأمثلة الواردة من نحو : عندى منوان سمن وعشرون درهما ، وملء الإناء عسلا ... على أن الأصل : عندى منوان سمن ، ودراهم عشرون وعسل ملء الإناء ...»^(٤) فالمعنى الذى أشار إليه معنى دلالى للعلاقة التى تربط بين التمييز والمميز بوصفهما عنصرين فى بنية تركيبية . وليست هناك صلة بين هذا المعنى ومعنى الإيضاح والتخصيص المستفاد من العلاقة المتصورة بين عنصرى البنى المناظرة : منوان سمن ودراهم عشرون الخ ، فهو معنى مخالف لعلاقة مخالفة هى العلاقة بين الموصوف والصفة .

إن مثل هذه الدراسة البلاغية القائمة على هذا الفهم للحال ، ومقتضاه دراسة نحوية آن الأوان لأن تراعى عند الحديث عن مسائل النحو وأبوابه . لكن إذا دخل عنصر الاختيار بجانب هذه المراعاة لمقتضى الحال صارت الدراسة دراسة بلاغية . وهذا نراه فيما يمكن أن يسمى تبادل الأحوال وبالتالي مقتضياتها . ويدخل فى هذا تنزيل غير المنكر منزلة المنكر^(٥) فى باب الخبر باستخدام الجملة مؤكدة ، أو فى باب القصر باستخدام ما وإلا بدل

(١) انظر العلوى ٣ / ٢٦٠ وما بعدها .

(٢) انظر السابق ص ٢٦٧ وما بعدها .

(٣) السكاكى ص ١٨١ .

(٤) السابق ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٥) انظر السابق ص ١٧٣ - ١٧٤ .

إنما^(١) أو فى دراسة أحوال المسند إليه باللجوء إلى تعريفه بالإشارة فى سياق تعريفه بالضمير .

هذا مانراه فى كتب البلاغيين من معنى الحال ومقتضاه ، وهناك بجانب ذلك أحوال مثل الشكر والتعزية والتهنئة إلخ ، وأرى أن دراستها ليست من اختصاص علم المعانى ، وإنما هى دراسة لفنون القول وأساليبه لأنها لا تدخل لها بتغيير شكل الجملة ونظامها نحويا .

١-١-١ معانى الإنشاء :

يبقى بعد ذلك جانب من دراسة المعانى فى ضوء الحال ، وهو دراستهم لمعانى الإنشاء البلاغية استفهاما وأمرًا ونهيًا إلخ ، وفى رأى أن هذه الدراسة ليست بلاغية ، وإنما هى فى جانب منها دراسة يختص بها علم المعنى بمفهومه الحديث ، فكثير من معانى الاستفهام^(٢) والأمر والنهى المجازية كالتنبيه والوعيد والاستبطاء والتهكم والتبكيك والتعجيز والسخرية مستقاة من المقام وقرائن الأحوال ، ودراسة القرائن ليست دراسة للألفاظ بل للظروف الخارجية التى ترتبط بها الألفاظ ، وهذا من مجال علم المعانى . وبعض هذه المعانى كالتعجب والتقرير والإنكار المستفاد من الاستفهام معان نحوية .

والمنهج الذى أسير عليه ويمقتضاه أفرق بين نوعين من معانى الإنشاء التى قيل إنها بلاغية فأجعل بعضها من اختصاص علم المعانى وبعضها الآخر من اختصاص علم النحو أن المعنى المستفاد من التركيب فى ضوء المقام إن كان من المعانى النحوية العامة كالإثبات والتقرير والاستفهام والتعجب والدعاء فهو معنى نحوى تركيبى ، أو صيغى ، ولو لم يساعد المقام فى إيضاحه عناصر صوتيه كالنغمة . وإن لم يكن من فصيلة هذه المعانى كالتهكم والتبكيك والتعجيز والسخرية مثلا فهو معنى دلالى ولو لم يساعد المقام فى إيضاحه عنصر صوتى كالنغمة أيضا .

(١) انظر التفتازانى وآخرون ٢/٢١٣ - ٢١٩ .

(٢) انظر الزركشى لمعرفة معانى الاستفهام ٢/٣٣٦ - ٣٤٤ ، وانظر أيضا السكاكى ٣١٣ - ٣١٤ .

وانظر لمعرفة معانى الأمر التفتازانى ٢/٣١٢ - ٣١٧ ، وانظر لمعرفة معانى النهى السابق

١ - ١ - ٢ مقتضى الحال والنظم عند عبد القاهر :

إن ما قدمناه من نقد لفهم البلاغيين للحال ومقتضاه ومن تصور جديد لهذين المصطلحين يدفعنا إلى أن ننظر من جديد فيما قيل من أن الصواب عند النحوى هو مطابقة الكلام للعرف اللغوى المتفق عليه^(١) فلقد أطلقت هذه الكلمة وظلمت الدرس النحوى باستبعاد كثير من مسائله ، فنحن قد رأينا أن ماعتبره البلاغيون خروجاً على أصل المعنى وإضافة إليه لمراعاة مقتضى الحال - هو المعنى اللغوى للتركيب كما أن هذه الكلمة كادت أيضاً تحيل النحو دراسة لأدنى مستويات النظم والتركيب ، وأن تجعل دوره الاهتمام بأصل المعنى ، ولقد نزل ذلك عند السكاكى منزلة أصوات الحيوانات .

وتبدو جذور ما قدمناه من تصور خاص للحال ومقتضاه جلية عند عبد القاهر ، ولكن المعانين قد غفلوا عنها ، فلقد أشار إلى صحة النظم وفساده ، وهذا هو الجانب النحوى فى دراسته ، وإلى المزية والفضل فيه ، وهذا هو الجانب البلاغى « فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم وفساده ، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معانى النحو وأحكامه^(٢) » وأشار إلى أن لكل تركيب مقامه الذى يقال فيه ، وهذا هو التلاحم بين التركيب والحال ليتكون المعنى . ويرى أن العدول عن مثل هذا المقام أو المعنى المستفاد من التركيب خروج على الصحة النحوية ، فقل لى كيف تفهم قوله « واعلم أن من الخطأ أن يقسم الأمر فى تقديم الشئ وتأخيرهِ قسامين فيجعل مفيداً فى بعض الكلام وغير مفيد فى بعض ... ذاك لأن من البعيد أن يكون فى جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى . فمتى ثبت فى تقديم المفعول مثلاً على الفعل فى كثير من الكلام أنه قد اختص بفائدة لا تكون تلك الفائدة مع التأخير ، فقد وجب أن تكون تلك قضية فى كل شئ وكل حال^(٣) أليس ذلك ماسبق أن قررناه من أن القصر هو معنى المفعول فى هذا الموقع؟ وهو معنى نحوى تركيبى ولن يخرجهُ عن هذا الإطار ما قرروه من أنه يقال فى موقف كذا ، لأن الموقف هو السياق الذى يحدد المعنى الاقتراضى المرتبط بفكرة القصر .

(١) انظر مصطفى ناصف ١٢ - ١٣ .

(٢) الجرجانى ص ٨٣ .

وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن السكاكى لم يفهم عبد القاهر فى صلب نظريته ، وإلى مخالفة السكاكى فى قوله « فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم ، فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم . وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك ، فحسن الكلام تحليته بشئ . من ذلك بحسب المقتضى قوة وضعنا ، وإن كان مقتضى الحال طى ذكر المسند إليه فحسن الكلام تركه ، وإن كان المقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة (أى فى صورة الضمير أو الإشارة أو الموصول إلخ) فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب ، وكذا إن كان المقتضى عند انتظام جملة مع أخرى فصلها أو وصلها ... فحسن الكلام تأليفه مطابقا لذلك» (١) وذلك أن كثيرا مما قرره السكاكى إنما هو من قبيل الصحة النحوية ، ولأن المقامات التى ذكرها أساس لتحديد معانى التراكيب ، والعدول عنها ليس بعدا عن الحسن وإنما بعد عن الصحة النحوية الدلالية وهو ما وضح فى كلام عبد القاهر .

إن جانبنا من دراسة عبد القاهر تتبع الجملة وبيان مواقع عناصرها البنيوية وعلاقة كل عنصر بغيره فقد درس تقدم الاسم على الفعل فى الإثبات والنفى والإستفهام (٢) ومواطن استخدام «إن» ومعناها (٣) . ومن جوانب دراسته أيضا دراسة مواطن الوصل والفصل (٤) وهو فى هذا كله نحوى يفوق النحاة ، فهو يبين المعانى النحوية لكل تركيب ، تقول : أبنييت الدار التى كنت على أن تبنيها «تبدأ فى هذا ونحوه بالفعل لأن السؤال عن الفعل نفسه والشك فيه...» وتقول : أنت بنيت هذه الدار «تبدأ فى ذلك كله بالاسم ، ذاك لأنك لم تشك فى الفعل أنه كان .. فهذا من الفرق لا يدفعه دافع ولا يشك فيه شك ولا يخفى فساد أحدهما فى موضع الآخر» (٥) .

ونراه هنا يعيد ماسبق أن أشرنا إليه من أن لكل تركيب معناه المستمد من الحال التى تستدعيه ، وهذا هو ما قصدنا إليه حين الحديث عن الحال ومقتضاء فى الجانب الذى يتعلق

(١) السكاكى ص ١٦٩ .

(٢) انظر الجرجانى ص ١١٢ - ١١٣ ، ١٢٤ - ١٢٥ .

(٣) انظر السابق ٢٧٣ .

(٤) انظر السابق ص ٢٠٢ وما بعدها .

(٥) الجرجانى ص ١١١ - ١١٢ .

بالدرس النحوى ، وقس على ذلك دراساته إنما ، وللفصل والوصل ، وتقعيده للإنكار فى الاستفهام (١) .

وهناك جانب آخر أوضح فيه عبد القاهر مزية تركيب على آخر فى الدلالة على معنى وهذا هو الدرس البلاغى لتوفر عنصر الاختيار ... فبجانب مراعاة مقتضى الحال يقول عبد القاهر ، وهو بصدد الحديث عن فكرة ألح عليها ، هى أن تقديم المسند إليه يفيد التأكيد والقوة : « ألا ترى أنك إذا استبطأت إنسانا فقلت : أأنا والشمس قد طلعت كان ذلك أبلغ فى استبطائك له من أن تقول : أأنا وقد طلعت الشمس .

وعكس هذا أنك إذا قلت : أتى والشمس لم تطلع كان أقوى فى وصفك له بالعجلة والمجئ . قبل الوقت الذى ظن أنه يجئ . فيه من أن تقول : أتى ولم تطلع الشمس بعد» (٢) .

هذه هى نظرية النظم عند عبد القاهر ، وهذا هو أبرز ما اشتملت عليه من النقاط رأينا بعضها يهتم بما يمكن أن يسمى الصحة العرفية اللغوية ، وبعضها الآخر جماليا يهتم بما يمكن أن يسمى مزية النظم أو التركيب .. وهى مزية تابعة من المفاضلة مثلا بين تعريف وتنكير ، أو بين مضارع وماض . ورغم أن عبد القاهر قد أفاد فى توجهه نحو هذا الجانب من الدرس النحوى من إشارات سيبويه واعترف بذلك كما نرى حين حديثه (٣) عن فائدة تقديم المحدث عنه فى قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ﴾ فإن النحو بين الذين خلفوه لم يتجهوا بالنحو الوجهة المذكورة ، وهى دراسة معانى التراكيب فى ضوء الأحوال التى تقتضيها ومعانى الأدوات المستفادة من الأحوال التى تستدعيها كذلك كأدوات القصر إنما « وما .. إلا .. » بل ظلت دراساتهم تدور حول الحركة الإعرابية والعامل الذى جلبها ، وإن تعرض بعضهم لوظائف الكلمة المقدمة من تأخير وما تجلبه من معنى ، أو لوظائف أداة مثل إنما - فإنه يردفه بقوله : إن هذه المسألة من علم البيان « يقصد علم المعانى » لا النحو (٤) .

(١) انظر السابق ص ١١٤ - ١١٩ .

(٢) السابق ص ١٣٦ .

(٣) انظر السابق ص ١٣١ .

١٩٩٨ / ١١ / ١٤١٩

ولقد خسر النحو كثيرا بالغفلة عما كتب عبد القاهر وما أشار إليه تلمحيا وتصريحا.

إن كلماته تصرخ فى أذان النحويين أن النحو أوسع ميدانا وأعمق فهما مما اتبعوا يقول عبد القاهر «وهو بصدد الحديث عن دقائق الحرف «إنما» وأنها لاتكاد تنتهى : وما يجب أن يعلم وهو ليس ببعيد أن يظن الظان أنه ليس فى انضمام «ما» إلى «إن» فائدة أكثر من أنها تبطل عملها حتى ترى النحويين لايزيدون فى أكثر كلامهم على أنها كافة ، ومكانها هاهنا يزيل هذا الظن ويبطله . وذلك أنك لو قلت : «ماجانى زيد وإن عمرا جانى» لم يعقل منه أنك أردت أن الجانى عمرو لزيد ، بل يكون دخول «إن» كالشئ الذى لا يحتاج إليه ، ووجدت المعنى ينبو عنه» (١) .

وكما عجز النحاة عن استثمار كلام عبد القاهر عجز البلاغيون من بعده عن فهمه فقد فهموه فهما أبعد الحقيقة عما قصد ، فما تضمنته مسائلهم فى علم المعانى أكبر من ميدان البلاغة : ميدان المزية والصحة الزائدة كما رأينا - إن الفصل والحسم بين المعانى وعلم النحو عند المعانين حسم نظرى لأن تطبيقاتهم تشتمل على كثير من قضايا البحث اللغوى بالمفهوم الذى ذكره عبد القاهر ونرتضيه ، وإن النظرة إلى ماكتبوه فى مجال المسائل تقرر ذلك ، كما تقرره النظرة إلى ماقرروه من الأصول «اعلم أن صاحب المعانى .. يشارك النحوى فى البحث عن المركبات ، إلا أن النحوى يبحث عنها من جهة هيئاتها التركيبية صحة وفسادا ، ودلالة تلك الهيئات على معانيها الوضعية على وجه السداد ، وصاحب المعانى يبحث عنها من جهة حسن النظم المعبر عنه بالفصاحة فى التركيب وقبحه . ومرجع تلك الفصاحة إلى الخلو عن التعقيد ، فما يبحث عنه فى علم النحو من جهة الصحة والفساد يبحث عنه فى علم المعانى من جهة الحسن والقبح . وهذا معنى كون علم المعانى تمام علم النحو» (٢) .

٢- آراء فى علم المعانى ونظرية النظم عند عبد القاهر :

لقد كان للبلاغيين القدامى موقف خاص مماكتب عبد القاهر كما رأينا ، ولقد كان للنحويين موقف آخر سلبى . ولم تمت قضية علم المعانى وعلاقته بالنحو ، ولا معنى ما

(١) الجرجاني ص ٣٥٤ .

(٢) ابن كمال باشا الورقة ٢٤ .

كتب عبد القاهر وسنحاول هنا أن نتتبع آراء مجموعة من الباحثين اللغويين والبلاغيين فى هذا الموضوع ليصبح الطريق مفتوحا لرأينا الخاص . وقد اخترت هذه الآراء لأن لكل منها وجهة نظر مختلفة يتعلق بها استخلاص الرأى الخاص .

٢- ١ رأى الدكتور مصطفى ناصف :

يشير الدكتور مصطفى ناصف إلى أن عبد القاهر يريد أن يقرر أن تغيير تأليف الكلمات فى الشعر وتنظيمها يغير المعنى ، كما يذكر أيضا أن حديث البلاغيين عن معنى الاستفهام البلاغى يقيد العبارة الاستفهامية ويبقى فى الذهن صورة الاستفهام مع أن الهدف هو خفاء هذه الصورة ، وإثارة أحاسيس يبرزها الموقف والشكل الإثنائى للاستفهام «الاستفهام تعبير مرهف ، لأنه كغيره من التعبيرات يخرج المعنى من إसार التحدد ووحدة الجهة ويشير فيه حاسة الإشكال ، وبعد أن تكون العبارة الإخبارية ذات صفة واحدة نسبيا يصبح الاستفهام ذا صفتين أو أكثر من ذلك . من الحق أن معارض الاستفهام تتنوع ولكن من الحق أيضا أن الجانب الهام فى الاستفهام ليس هو خروجه عن معناه إلى معنى آخر واحد .. الاستفهام عبارة شائكة يتخلص فيها الشاعر من ركود العبارة المألوفة والصفة الآلية التى تلبس الوضوح» (١) .

ويذكر الدكتور ناصف أيضا أن ربط كل معنى بتركيب وإحكام التلازم بينهما سيحيل اللغة إلى فكرة الأساليب والأنظمة المطردة فأى «بحث فى لغة الشعر خاصة يقوم على أساس اطراد بعض الأفكار والأسس لا يمكن أن ينتهى إلى نتيجة سليمة تماما» (٢) .

وفى النهاية يقرر أن مهمة عبد القاهر البحث عن محسنات المعنى بتتبع المعارض التى يظهر فيها ، فالمعنى فى : زيد شجاع وإن زيدا شجاع وماشجاع إلا زيد واحد ، وتنوع صور هذا المعنى هو ما يهيم عبد القاهر : «إن زيدا أسد» زينة وتحسين لقولنا زيد أسد (٣) .

(١) مصطفى ناصف ص ٥٠ - ٥١ .

(٢) السابق ص ٣٢ .

(٣) انظر السابق ص ٤٦ .

لقد وفق الأستاذ الدكتور فى فهم عبد القاهر فى الجانب الذى يتعلق بتغير المعنى لتغير النظم ، والذى يتعلق باختلاف دراسة الاستفهام فنيا عن دراسة عبد القاهر له ، التى تبعها المعانيون من بعده ، وفى استخلاص نتائج دراسة عبد القاهر للأسلوب . ولكن الصواب جانب الأستاذ الدكتور فى النقطة الأخيرة التى تضمنتها الفقرة السابقة .

ورأى أن ذلك نابع من توهم أن مدرسة عبد القاهر فى «دلائل الإعجاز» درس بلاغى جمالى فقط ، وذلك أن استرجاع ماسبق أن قرناه من أن عبد القاهر درس معانى التراكيب نحويا ومعانى المواقع ، وربط بين شكل التركيب والحال التى يقال فيها يبرز أن هناك فرقا بين زيد شجاع وإن زيدا شجاع وما شجاع إلا زيد ، فلكل تركيب حاله التى تقتضيه ومن ثم معناه الخاص المتلاحم مع هذه الحال ، أو النابع من ارتباطه بموقف أو سياق خاص .

٢- ٢ رأى الدكتور إبراهيم سلامة :

يرى الدكتور إبراهيم سلامة أن العلم الجديد الذى وضعه عبد القاهر علم بلاغى لانهوى^(١) ، وأن تنقل الجملة من الاستفهام النحوى إلى التوبيخ ومن التوبيخ إلى التعجب ، وهذا التنقل من إنشاء إلى إنشاء ، أو من خير إلى إنشاء هو كل ماتريده البلاغة^(٢) وأن النحويين قد بحثوا فى تعلق الكلم بعضها ببعض وفى أسباب هذا التعلق أحيانا ، وأما عبد القاهر فستكون مهمته البحث فى ضرورة هذه الأسباب^(٣) .

وإننى أخالف الدكتور فيما قرر ، لأن العلم الذى وضعه عبد القاهر فى جانب منه انتحاء بالدرس النحوى وجهته الصحيحة ، وفى جانبه الآخر درس بلاغى بالمفهوم الذى ارتضيئه ولأن معانى الاستفهام ميدانها علم المعنى بمفهومه الحديث ، ولأن عبد القادر وإن بحث فى ضرورات أسباب التعلق كان نحويا حين تكون هذه الضرورات هى مقتضيات اللغة ومنطقها الخاص .

(١) انظر إبراهيم سلامة ص ٢٥٤ .

(٢) انظر السابق ص ٢٥٥ .

(٣) انظر السابق ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

ومن الضروري أن تذكر في هذا المجال نصا من «دلائل الإعجاز» يؤكد لنا ماقلناه من أن العلم الذى تحدث عنه عبد القاهر فى كتابه كان فى بعض منه انتحاء بالنحو وجهته الصحيحة ، ولم يكن بلاغة صرفا يقول : «ومن فروق الإثبات أنك تقول : زيد منطلق وزيد المنطلق والمنطلق زيد فيكون لك فى كل واحد من هذه الأحوال غرض خاص وفائدة لاتكون فى الباقي . وأنا أفسر لك ذلك . اعلم أنك إذا قلت : زيد منطلق كان كلامك مع من لم يعلم أن انطلاقا كان لامن زيد ولا من عمرو ، فأنت تفيد ذلك ابتداء ، وإذا قلت : زيد المنطلق كان كلامك مع من عرف أن انطلاقا كان إما من زيد وإما من عمرو ، فأنت تعلمه أنه كان من زيد دون غيره ، والنكته أنك تثبت فى الأول الذى هو قولك : زيد منطلق فعلا لم يسمع السامع من أصله أنه كان وتثبت فى الثانى الذى هو : زيد المنطلق فعلا قد علم السامع أنه كان ، ولكنه لم يعلمه لزيد فأفدته ذلك ، فقد وافق الأول فى المعنى الذى كان له الخبر خيرا ، وهو إثبات المعنى للشئ» (١) .

وما يقول عبد القاهر هنا هو نفسه مايقال فى الدرس اللغوى الحديث : أن المعنى التضمنى و الافتراضى للمثال الثانى «زيد المنطلق» والمستمد من السياق الذى يقال فيه يختلف عن المعنى التضمنى للمثال الأول «زيد منطلق» مثلا .

٢- ٣ رأى الدكتور كمال بشر :

يصف أستاذنا الدكتور كمال بشر المعانيين بأنهم لغويون بالدرجة الأولى وأن اهتمامهم بالتراكيب يضعهم فى صفوف اللغويين المحترفين والنحويين منهم بوجه خاص ، وذلك لأن التراكيب هى الوظيفة الأولى والأخيرة للنحو ، وهذا يعنى فى نظره أن علم المعانى فى البلاغة التقليدية نحو صرف (٢) .

وما قرره أستاذنا مقبول فى جملته ، لكن النظرة المدققة تستوجب وضع اشتراطات. فالمعانيون لغويون ونحويون حقيقة ، ولكن فى الجانب الذى ظنوه فى علم المعانى بلاغة وهو نحو صرف وهذا مارأينا منه صورة لدى عبد القاهر فى تحديد معنى التركيب أو الأداة

(١) المرجانى ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٢) انظر كمال بشر ، دراسات فى علم اللغة هامش ١ ص ١٤٦ - ١٤٨ .

فى ضوء الموقف ، وبعبارة أدق مارأينا فى الارتباط القوى بين معنى التركيب أو الأداة والموقف أو السياق الذى تقال فيه . وعلم المعانى نحو ولكن ليس صرفا لأن جزءا منه يتعلق بالبحث عن معنى فوق معنى الصحة ، هو معنى المزية والحسن ، وذلك فيما رأينا من المقارنة بين اختيار تركيب أو أداة ، أو فى قلب المقامات ونكاته .

٢- ٤ رأى الدكتور مهدى المخزومى :

يرى الدكتور مهدى المخزومى أن دراسة المعانى والنحو دراسة واحدة ، وأن الجملة الصحيحة لغويا ونحويا هى الجملة الفصيحة ، أى أن هناك تطابقاً بين الصحة العرفية والصحة الجمالية^(١) كما يرى أيضا أن من الدرس النحوى دراسة أثر الموقف والحال فى شكل التركيب ذكرا وحذفا وتقديم وتأخيرا^(٢) .

وهذا رأى يشبه سابقه فى أن الأخذ به جملة غير الأخذ به تفصيلا . فلقد رأينا أن الصحة الجمالية تزيد على الصحة العرفية حين المقارنة بين تركيب وآخر من حيث التعبير عن المعنى ، وذلك فى قلب المقامات ، أو فى اختيار أداة دون أخرى أو صيغة مكان غيرها . وقد رأينا أيضا أن علم المعانى مجاله أوسع من علم النحو ، لأن جزءا منه يتطلب البحث عن مزية النظم .

٢- ٥ الرى الخاص :

بعد استعراض العلاقة بين علم النحو والمعانى فى ضوء تحديد مفهوم البلاغة ، وفهم معنى مقتضى الحال عند البلاغيين ، ونتائج هذا الفهم ، وتتبع آراء الباحثين المعاصرين يحق لنا أن نقدم هذا التصور لميدان البلاغة عموما ولعلم المعانى وعلاقته بالنحو العربى خصوصا :

١- إن علم المعانى بالمفهوم الذى وضع لدى البلاغيين الذين خلفوا عبد القاهر يجمع بين دفتيه علوما لغوية وجمالية ، فهو يضم مسائل من صميم الدرس النحوى مثل دراسة

(١) انظر مهدى المخزومى ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) انظر السابق ص ٨٢ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٣ - ١١٤ .

القصر والوصل والفصل وأضرب الخبر ، وبعض معانى الاستفهام كالإنكار والتعجب والأمر وبعض معانى الخبر كالاستفهام والأمر ، أو بصورة مجملة كل ما يتصل بتحديد المعنى الوظيفى للمبنى أداة أو فعلا أو للتركيب أو للموقع . ولو ساعد المقام على إيضاحه مادام عنصر المفاضلة غير موجود .

ويضم علم المعانى كذلك دراسة من صميم علم المعنى بمفهومه الحديث ، مثل دراسة معانى الإتشاء والخبر المسماة البلاغية ، والتي ليست من المعانى النحوية العامة ، أو من معانى الجملة فى النحو العربى ، فالمعانى الأولى كلها تفسر فى ضوء المقام والموقف بملابساته العديدة .

وقد رأيت أن كثيرا مما يسمى بالنكات البلاغية يمكن أن يفسر فى ضوء المقام ليصبح معنى اجتماعيا^(١) سياقيا فى النهاية ، فدواعى حذف المسند إليه ، وتعريفه بالإضافة فى نحو قولنا : «عبدى حضر» يفسرها المقام^(٢) فالتعظيم المراد من هذا المثال ليس معنى الباء أو معنى إضافة المسند إليه إليها ، وإنما هو معنى مستفاد من هذا كله ومن الموقف : شكل المتكلم حين الحديث ، وطبيعة علاقته بمن يخاطبهم ، وطبيعة مزاجه الشخصى الذى تكشف عنه خبراتنا السابقة بوصفه شخصا يحب الزهو أولا .

ويضم علم المعانى فى النهاية دراسة لمزايا النظم فى ضوء المقارنة بين نظم وآخر وهذا ماسبق أن ارتضيته تحديدا للبلاغة ، فهى فن الاختيار لنظم ما أو لتركيب ما أو لأداة ما بالمقارنة مع ما يقابله ، فتفضيل اسم الإشارة للقريب على البعيد أو العكس ، واستخدام التركيب «ولأبويه لكل واحد منهما السدس» فى الآية الكريمة بدلا من «ولكل واحد من أبويه السدس»^(٣) واستبدال «في» باللام^(٤) فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ كل ذلك من قبيل الدرس البلاغى ، وهنا نضع أيدينا على الفرق بين أصل المعنى ، والمزية والحسن فيه .

(١) المعنى الاجتماعى جزء من المعانى السياقية .

(٢) انظر السكاكى ص ١٧٦ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٣) انظر مصطفى الصاوى ص ٢٢٤ .

٢- هذا الفصل فى علم المعانى بين قضايا النحو وقضايا البلاغة ، وهذا التحديد لمجال العلم الأخير لا يغلط الباب أمام البحث عن مزايا النظم أو التراكيب أو لا يقضى عل النظرية التى وضعها عبد القاهر ، وذلك لأن مجال الاختيار بين نظم وآخر أو بين أداة وأخرى مثلا ، لإبراز مزية أحسن سيظل الباب الذى ينفذ منه راغبو البحث عن أسرار النظم ، ودلائل الإعجاز فى القرآن الكريم ، كما أن عبد القاهر قد لفت أنظارنا بطرف خفى إلى أن الإعجاز يستثمر مزايا اللغة ومنطقها بعيدا عن الاختيار والمفاضلة وهذا مجال صعب لا يحيط به إلا كل خبير .

٣- إن هذه التصفية لعلم المعانى وإعطاء كل من النحو وعلم المعنى مسأله سيجنبنا الخلط بين قضايا البحث اللغوى ، وستفتح الطريق أمام نظرة جديدة لدراسة النحو العربى تلم أشتاته المبعثرة فى علم المعانى ، وستحدد بدقة مجال البلاغة . وسيعرف الدارس للجملة حينئذ ولعناصرها ومعناها العام متى يتوقف فى الدرس النحوى للجملة ، ومتى تبدأ دراسته لها فى ضوء علم المعنى .

ورأى أن الجانب الجمالى فى علم المعانى ، والذى يمثل البلاغة يمكن أن يوضع بعد مستوى البحث فى الجملة نحويا ، والبحث فيها فى ضوء علم المعنى ، وذلك أنه لعلقة لهذا الجانب بالتأويل الدلالى للجملة ، فهو فلسفة للنظم أو بيان لضرورات الاختيار .

وفى ضوء هذا المنهج سنتبين معنى هذه العناوين التى تملأ بها بعض كتب اللغويين القدامى أمثال ابن فارس والعلم الذى تندرج تحته ، فهو يذكر لنا فى كتابه «الصاحبى» «باب مايجرى من كلامهم مجرى التكهم والهزء يقولون للرجل يستجهل : يا عاقل»^(١) ويذكر فى باب آخر أن العرب «تشير إلى المعنى إشارة وتومىء إيماء دون التصريح ، فيقول القائل : لو أن لى من يقبل مشورتى لأشرت . وإنما يحث السامع على قبول المشورة»^(٢) .

وبعض كتب علوم القرآن كالبرهان للزركشى^(٣) تذكر ألوانا من الخطاب فى القرآن

(١) الصاحبى ص ٢٥٥ .

(٢) السابق ص ٢٤٨ .

(٣) انظر الك.ك.ش. ٢/٢٤٧ . ٢٥٣ .

الكريم كخطاب التشجيع والتحريض ، وخطاب التهيج والتعجيز ، وخطاب التحسير والتلف ، وخطاب التشريف والتكذيب ، وكل ذلك يمكن إرجاعه إلى علم المعنى لاعلم المعانى ، لأنه حديث عن المعنى الاجتماعى السياقى .

٤- إن هناك جوانب سلبية أخرى فى الدراسة البلاغية ، فليست النكات التى يتحدثون عنها لإبراز ضرورات الاختيار مقنعة عل طول الخط بل ترى بعضها أقرب إلى الهذيان والخيال ، حتى إن النحويين قد فطنوا إلى ذلك بقول أبو حيان «وما يذهب إليه أهل علم البيان «يقصد المعانى» ويختصون به ينهى ألا يحكى مذهباً لأنهم يبنون على خيالات هذيانية واستقرارات غير كاملة»^(١) .

والمعنى الذى يكشفون عنه فى ضوء المقارنة بين نظم وآخر ، أو اختيار وغيره يكاد يصبح أحيانا معنى النظم لغويا ، لأنه لا يمكن أن يكون لنظمين مختلفين نفس المعنى تقريبا ، ومن ثم فالمقارنة ذاتها باطلة .

وهكذا نرى أن اكتشاف البلاغيين فى هذا الجانب نفسه الذى ارتضيناه مجالا للبلاغة قد يتحول إلى دراسة لغوية لاجمالية ، وهذا خطأ البلاغيين الذين ارتضوا الجمال التعبيرى جمال مقارنة بين نظم وآخر ، فهذا يهدد لغة الجمال أن تتحول إلى لغة منطقية . وكثيرا ما ذابت الأولى فى الأخيرة ، فالتكرار «من تلك الوسائل التى نشأت فى اللغة الانفعالية ، ثم صار بعد استعماله فى اللغة المنطقية مجرد سياسة نحوية»^(٢) .

وفى تصورى أن بعض معانى الإنشاء التى أخذتها على أنها معانى نحوية ، كالتقرير والتعجب ، كانت فى البداية معانى انفعالية ثم حولتها كثرة الترابط بينها وبين تراكيبها إلى معان لغوية . وهذه طبيعة العلاقة بين اللغتين الانفعالية والانتقالية : هناك انتقال من إحداها إلى الأخرى^(٣) .

فالدراسة الجمالية أخطأت البداية والمنطلق عند البلاغيين ، أو المعانين بوجه خاص ، فالبلاغة ليست مقارنة ، لما قدمناه . ولقد كان الموقف بلباساته هو البداية الصحيحة لأن

(١) السيوطى ، الأشباه ١٠/٣ .

(٢) قنديرى ص ١٩٩ - ٢٠١ انظر السابق ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٣) انظر كمال بشر دور الكلمة ص ٩٥ - ٩٦ .

كثيرا من جوانب الثراء فى اللغة يكشف عنها ، فهو المستول عن المعانى العاطفية والانفعالية فى التعبير وهو الذى يخلق وظيفة للغة غير وظيفة التقرير للقضايا^(١) وهو الذى يخفى معالم التركيب ونظمه ولا يبقى إلا ذكريات الكلمات وما يشير تاريخها من مشاعر ورغبات ، فيفتح الطريق لثراء المعنى وتعقداته ، ويسد العجز الكامن فى اللغة المنطقية المحدودة : لغة الأنظمة المطردة .

وتلك وظيفة اللغة الجمالية الانفعالية التى أراد البلاغيون البحث عنها فضلوا الطريق، وهذا هو الكشف الصحيح لعبقرية اللغة .

مراجع البحث :

- ١- إبراهيم سلامة ، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : دراسة تحليلية نقدية تقارنية، مكتبة الأنجلو المصرية (١٩٥٠) .
- ٢- أحمد الشايب ، الأسلوب : دراسة نقدية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ، المطبعة الفاروقية ، الإسكندرية (١٩٣٩) .
- ٣- أولمان ستيفن ، دور الكلمة فى اللغة ، ترجمة وتقديم وتعليق د . كمال بشر ، الطبعة الثانية (١٩٦٩) ، الناشر مكتبة الشباب ، المنيرة - القاهرة .
- ٤- التفتازانى ، سعد الدين وآخرون ، شروح التلخيص ، الطبعة الأولى ١٣١٨ هـ ، المطبعة الكبرى الأميرية ، بولاق - مصر .
- ٥- تمام حسان ، اللغة العربية : معناها ومبناها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة (١٩٧٣) .
- ٦- جبر ضومط ، كتاب فلسفة البلاغة ، المطبعة العثمانية ، بعيدا لبنان (١٨٩٨) .
- ٧- الجرجاني ، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي بالقاهرة (بدون تاريخ) .

(١) انظر ريتشاردز ، مقدمة المترجم ص ٦ - ٧ .

٨- ريتشاردز ، أ- ١ ، مبادئ النقد الأدبي ، ترجمة وتقديم د. مصطفى بدوى ، مراجعة د. لويس عوض ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (١٩٦٣) .

٩- الزركشى ، بدر الدين محمد بن عبد الله ، البرهان فى علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الثانية ، عيسى البابى الحلبي وشركاه (١٩٧٢م) .

١٠- السكاكى ، أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر ، مفتاح العلوم ، ضبط وتعليق نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان الطبعة الثانية (١٩٨٧) .

١١- السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ، همع الهوامع ، شرح جمع الجوامع فى علم العربية ، الطبعة الأولى ١٣٢٧ هـ ، محمد أمين الخانجى ، مطبعة السعادة - مصر .

١٢- السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ، الأشباه والنظائر .

١٣- الصحابى ، أبو الحسين أحمد بن فارس ، فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها ، تحقيق وتقديم مصطفى الشويحى ، مؤسسة أ ، بدران ، بيروت - لبنان (١٩٦٤) .

١٤- العلوى ، يحيى بن حمزة بن إبراهيم ، كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، مطبعة المقتطف - مصر .

١٥- فندريس . ج ، اللغة ، تعريب عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعة لجنة البيان العربى .

١٦- ابن كمال باشا ، مجموعة رسائل ابن كمال باشا «مخطوط» دار الكتب المصرية.

١٧- كمال محمد بشر ، دراسات فى علم اللغة «القسم الثانى» الطبعة الثانية (١٩٧١) دار المعارف .

١٨- مصطفى الصاوى الجوينى ، منهج الزمخشري فى تفسير القرآن وبيان إعجازه ، دار المعارف (بدون تاريخ) .

١٩- مصطفى ناصف ، نظرية المعنى فى النقد العربى ، دار القلم (١٩٦٥) .

٢٠- مهدي المخزومي ، فى النحو العربى : قواعد وتطبيق على المنهج العلمى الحديث ، الطبعة الأولى (١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦م) شركة مكتبة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر .

